الفصل السادس

ردود الأفعال الفطرية
وردود الأفعال المكتسبة

نحن الآن على استعداد تام للخوض فى المفهوم البيولوجى . لقد اكتملت عدتنا وامتلأت جعبتنا للدخول فيه .

فالانسان جهاز لردود الأفعال حيال المؤثرات والانطباعات ، ووظيفة عقله هى تقرير هذه الرجوع ، أو ردود الأفعال . والغرض من تربيته هو جعل هذه الرجوع أو ردود الأفعال عديدة وتامة .

وموجز القول أن تربيتنا تعنى شيئا أكثر من كتلة أو حزمة أو كومة من إمكانيات رد الفعل فى البيت أو المدرسة أو فى التدرب على أداء شئون الحياة العامة .

فمهمة المعلم إذن هى توجيه سبيل التحصيل .

وما دام هذا هكذا فسأذكر مباشرة قانونا يتضمن سبيل التحصيل برمته ، ويهيمن على نشاط المعلم كله ، ويتحكم فيه . واليكم نص القانون :

« كل رد فعل مكتسب — كقاعدة عامة — إما أن يكون مركبا بالتطعيم من رد فعل فطرى وإما بديلا عنه ناجما أصلا من نقص الحافز الذى أثاره » .

وفن المعلم هو فى إحداث هذا البدل أو هذا المركب .

والنجاح فى هذا الفن يفترض أصلا ويقتضى تعرفا حانيا ودودا باتجاهات ردود الأفعال وميولها الموجودة بالفطرة .

فبدون هذا العتاد من ردود الأفعال الفطرية من جانب الطفل لن يكون للمعلم سيطرة قط على انتباه الطفل ولا هيمنة على مسلكه .

فانك تستطيع أن تأخذ الحصان الى الماء ، ولكنك لن تستطيع أن تكرهه على الشرب .

وهكذا الأمر يتحقق بالقياس الى الطفل ، فانك تستطيع أن تأخذه الى قاعة الدرس ولكنك لا تستطيع أن تكرهه على تعلم الأشياء الجديدة التى ترغب فى نقلها اليه ، الا اذا توسلت اليه بادىء ذى بدء بشىء يجعله فطريا يحدث رد فعل . فعليه هو أن يتخذ الخطوة الأولى،وعليه هو أن يفعل شيئا قبل أن تمسك بزمامه . وهذا الفعل الذى يصدر عنه قد يكون فعلا طيبا أو سيئا .

بيد أن رد الفعل السيىء أفضل من انعدام رد الفعل بتاتا ؛ لأنك فى هذه الحالة تستطيع أن تقرنه بالنتائج التى تنبهه الى سوئه وتفتح عينيه على سيئاته .

ولكن تصور طفلا لا حياة فيه بحيث لا يصدر عنه رد فعل على أى نحو حيال استثارات المعلم الأولية.فكيف يمكن بالله عليك أن تبدأ الخطوة الأولى فى تربيته ؟

ولكى يتضح هذا المفهوم المجرد ونجعله محسوسا وملموسا فافترض حالة تدريب طفل صغير على الآداب الحسنة . فالطفل عنده ميل فطرى لكى يخطف بيديه أى شىء يجذب انتباهه ويثير حب استطلاعه . وعنده أيضا المـــيل الفطرى ليسحب يديه اذا ما لطما . ويصرخ فى هذه الحال الأخيرة ، ويبتسم اذا ما تحدثنا اليه برفق بوجه هاش باش ودود ، ويحاكى ما يراه من اشارات أو ايماءات أو حركات يحدثها الغير .

افترض الآن أنك ظهرت أمام الطفل ومعك لعبة جديدة تنوى إهداءها اياه .

انه لا يكاد يرى اللعبة حتى يحاول خطفها فتضربه على يده فيسحبها ويصرخ ويبكى . عندئذ تمسك باللعبة وتهش وتبش قائلا : « التمس منى برقة أن أعطيك إياها. على هذا النحو » .:

عندئذ يكف الطفل عن البكاء ويقلدك فى ابتسامتك ثم يأخذ اللعبة جذلان مسرورا .

وهذه الدورة الصغيرة من التدريب — دورة كاملة .

فلقد استبدلت رد فعل جديد هو الالتماس برفق برد الفعل الفطرى — الخطف — عندما كان هذا النوع من التأثير أو الانطباع هو الذى حدث .

ولكن اذا لم يكن عند الطفل ذاكرة لما أصبحت العملية تربوية ، ولما كانت السبيل تعليمية.

فمهما تكررت مرات عودتك الى المنزل حاملا اللعب ، فستحدث السلسلة المهلكة نفسها من ردود الأفعال كما لو كانت قدرا مقدورا .

وكل رد فعل يستدعيه انطباعه ..

يرى — يخطف — يضرب — يبكى — يسمع — يسأل — يأخذ — يبتسم .

ولكن اذا وجدت الذاكرة فان الطفل فى اللحظة التى يخطف فيها يتذكر بقية الخبرة الماضية ويفكر فيما لقيه من ضرب وإحباط ، ويتذكر الالتماس والتوسل والجزاء والمكافأة ، فيقمع باعث الخطف ويستبدله برد فعل لطيف رقيق ، ويحصل على اللعبة مباشرة بحذف كل الخطوات الأخرى التى تتعاقب من بدء رؤية اللعبة الى حصوله عليها .

فاذا كان الباعث الأول للخطف عند الطفل قويا جدا ، أو كانت ذاكرته ضعيفة ، فان الأمر يحتاج الى تكرار طويل للنظام قبل أن يصبح رد الفعل المكتسب أو المحصل عادة راسخة راسية الجذور ، ولكن فى حالة الطفل ذى القابلية العالية للتربية فان خبرة واحدة تكفى .

ومن السهل علينا أن نتمثل العملية كلها بوساطة رسم هندسى للمخ — مثل هذا الرسم لا يزيد على كونه ترجمة رمزية للخبرة المباشرة الى أبعاد ولكنها على أية حال مفيدة ، لذلك سأذيل بها كلامى ..

مراكز الذاكرة والارادة

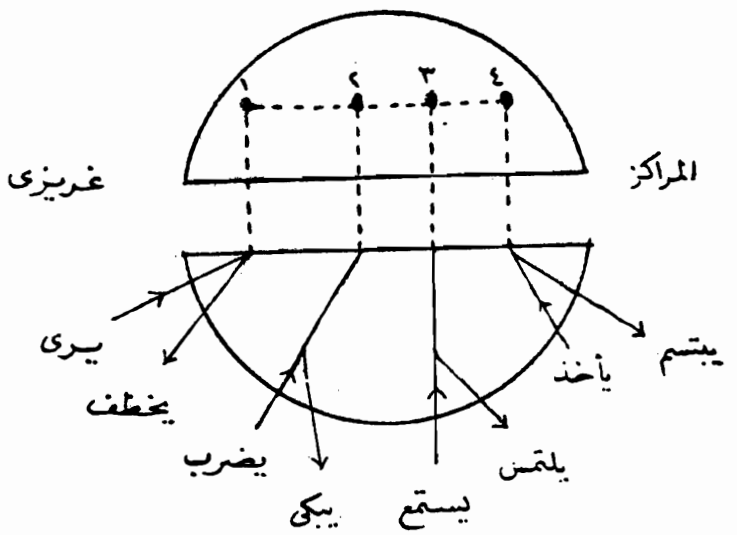

الشكل (١) عمليات المخ قبل التربية

الشكل رقم (١) يبين مسالك المنعكسات الأربعة المتتابعة التى تؤديها المراكز الواطئة أو الغريزية . والخطوط المنقوطة التى تبدأ منها الى المراكز

العليا وتربط هـذه المراكز العليا معا ، تمثل عمليات الذاكرة والترابط أو التداعى التى تؤثر بها ردود الأفعال على المراكز العليا عندما تحدث .

مراكز الذاكرة والارادة

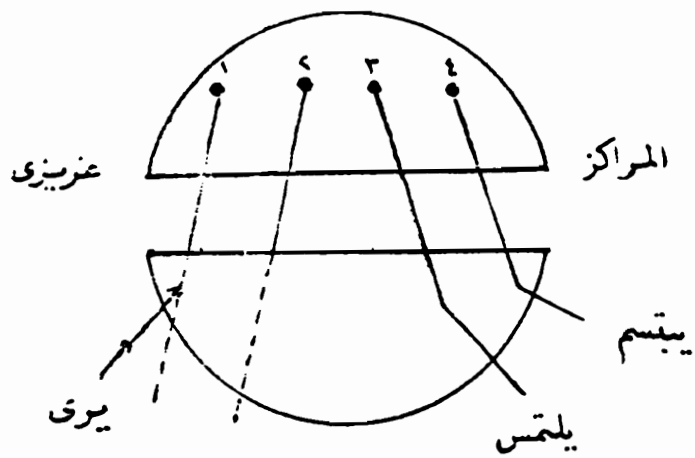

الشكل (٢) عملية المخ بعد التربية

فى الشكل الثانى نجد النتيجة الختامية . فالانطباع « يرى » يوقظ وينبه سلسلة الذكريات ، وردود الأفعال الوحيدة التى تحدث هى يلتمس ويبتسم . فكرة الضرب المرتبطة بنشاط المركز (٢) تكبت يخطف وتقمعها وتجهضها ولذلك رمز لها بخط منقط من الأداء لا يصل الى نهاية مطافه أى لا يكتمل مساره وينسحب الشىء نفسه على رد الفعل يبكى .

فردا الفعل هذان قد انقصف مسارهما بسبب التيار النافذ خلال المراكز العليا من « يرى » الى « يبتسم » .

وهكذا « يلتمس » و « يبتسم » حلت محل رد الفعل الأصلى «يخطف» وأصبحتا أخيرا الاستجابتين المباشرتين عندما يرى الطفل شيئا قابلا للخطف فى يد شخص آخر .

فأول شىء يتعين على المعلم فهمه هو الميول الفطرية لردود الأفعال ، وحوافز وغرائز الطفولة . لكى يستطيع أن يستبدل واحدا بآخر ويحولها الى أشياء أخرى مصطنعة .

كثيرا ما يقال إن الانسان يتميز عن الحيوانات الدنيا بأن عنده تشكيلة أقل من الغرائز والبواعث الفطرية مما هى عند الحيوانات الدنيا ولكن هذا خطأ كبير .

فالانسان — طبعا — ليست عنده الغرائز الرائعة البارعة لوضع البيض — الموجودة عند بعض الحيوانات .

ولكن اذا قارنا الانسان بالحيوانات الثديية فاننا مضطرون الى الاعتراف بأنه ينجذب الى عدد أكثر من الأهداف والأشياء مما هو الحال عند أى حيوان ثديى ، وان ردود أفعاله حيال هذه الأشياء متمايزة ومحدودة ومدبرة لدرجة عالية .

فالقردة — وخصوصا القردة العليا — هى المخلوقات الوحيدة التى تقترب من الانسان فى حب الاستطلاع التحليلى وفى سعة مجال قدرتها على التقليد .

وصحيح أن البواعث الغريزية عند الانسان تغشيها ردود أفعال ثانوية بسبب قدرته العقلية الفائقة . ولكن ذلك يفقد الانسان التصرف أو السلوك الغريزى البحت . بيد أن الحياة الغريزية فى الانسان تستتر وتختفى أحيانا ولكنها لا تفقد — وعندما تكون الوظائف العقلية العليا فى حالة تعطل كما يحدث فى حالات الجنون والعته فان غرائز الانسان تبرز وجودها أحيانا وتتجلى فى فظاظة ووحشية .

لذلك سأتكلم عن هذه الاتجاهات الغريزية التى هى بالغة الأهمية من وجهة نظر المعلم .